تأثير النسق اللغوي على النسق المعرفي في حياتنا

عمر برمان

الملخص:

"أينما يكن مسلكك في دنيا المعرفة، فابحث عن اللغة: قمة العلوم الإنسانية ورفيقة العلوم الطبيعية، وركيزة الفلسفة عبر القرون، و رابطة عقد الفنون، و محور تكنولوجيا المعلومات، و هندسة معرفتها ولغات برمجتها."نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، ص ٢٤٤.

ننطلق في ورقتنا من مسَلَّمة أن الإنسان لا يحس ولا يشعر خارج عالم اللغة، بل تعد اللغة الإطار الذي يتشكل فيه الإنسان بأحاسيسه وشعوره، واللغة ليست طبيعة خاصة بالفرد، بل هي نسق تفكيري تتفاعل فيه الذات مع الموضوع المدرك، وتتجلى في الملفوظات الثقافية والممارسات الاجتماعية. وسأحاول في هذه الورقة تقصي أثر استعمالنا للغة وأداءَنا بها على نسق معارفنا التي نرى آثارها في حياتنا اليومية، وكأننا بطريقة أو بأخرى نبحث عن أثر نسقنا اللغوي في بنية عقلنا، ومدى علاقة ذلك بتطورنا أو بتخلفنا؛ إنه بحث في حفريات اللغة وما ورائياتها.

وسنجد أنفسنا في طور ذلك التنقيب نحفر عميقا في واقعنا العربي ونحفر أعمق في علاقة اللغة العربية بحقول المعارف الأخرى من علم نفس وتربية وتنمية بشرية وصناعة وحوسبة وعلم أعصاب؛ يقول نبيل علي: "تنفرد اللغة بشبكة من الصلات الوثيقة تربطها بجميع فروع المعرفة فلسفة وعلوماً إنسانية وطبيعية وفنونا وتكنولوجيا. إن هذا الموقع المحوري للغة على خريطة المعرفة الإنسانية قد أهّلها لتكون أداة فعّالة لحل المشكلات خصوصًا بالنسبة إلى مشكلات العصر التي تتداخل فيها فروع المعرفة المختلفة."، ومدار الأمر كله حول ذلك الناطق بهذه اللغة ويحيا بها، إنه الإنسان العربي، الذي يجب عليه الآن أكثر من أي وقت مضى أن يقْصر المسافة بين لغته وواقعه فيعيد التعبير عن أهدافه من أجل واقع أفضل؛ لأنه "من المهم لكل شخص يريد أن يُغيِّر في حياته شيئاً، أن يجد أوّلاً الجمل الصحيحة المعبِّرة عما يريد التوصل إليه."

وسأحاول تقصي استعمالات لغوية سائدة في مجتمعاتنا العربية- وصفًا وتحليلا- حفرت بعيدا في تلافيف العقل العربي فأنتجت حالة من التردي والنكوص وحالت بيننا وبين الإبداع والابتكار والريادة؛ من قبيل إلقاء اللوم على الآخرين، وعاطفية التفكير، والآنية والارتجال، والشعور بالدونية وضعف الثقة بالنفس، وغيرها من علل حياتية أصلها علل لغوية قتلت فينا الذات الفاعلة.

المداخلة:

وقبل أن أخوض في تحليل تجليات االنسق اللغوي وأثره في تردي الحال المعرفية العامة للمجتمع العربي، وددتُ أن أضع نفسي وإياكم في سياق ما نحن بصدده، ألا وهو ترسيخ بعض المنطلقات الأدبية والفلسفية البانية لهذا التصور، وأولها أن هذا التصور هو نتاج قراءة متواضعة استطاعت أن تجد لحمة بين سطورٍ وأفكارٍ مترامية بين دفات الكتب، كما هو نتاجٌ لفعل القراءة أي إسقاط ما رشح من وعي على الواقع لفهمه، وثانيها فإن مهمتي في بناء هذا التصور هي كما قال الفيلسوف الإيطالي أنطونيو بيللو: "كانت مهمتي هي مهمة الناسج فقط، ولا يمكنني أن أنسب لنفسي مزايا القطن والكتان"، وثالثها ويتعلق بالبحث ذاته وهو أنني طالما كنت أبحث عن منبر وسياق فكري لطرح معطى اللغة كنسق بانٍ للنسق المعرفي؛ النسق اللغوي هو الخطاب والنسق المعرفي هو الفعل أي تجليات ذلك الخطاب على الواقع كما يقول محمد الأوراغي: "اللغة نسقٌ رمزي و ديوانٌ ثقافي، و اتخاذُ اللغة في علاقاتها بالتنمية موضوعاً للدراسة يخرجنا من اللسانيات الوصفية التي تُركز على النسق الرمزي، و ينقلنا إلى مجال اللسانيات التي تُعنى بتبادل التأثير بين اللغة و المجتمع. و من هذا المجال الواسع يهمنا حالياً أن نحدد دور اللغة العربية في التنمية البشرية."٤.

و رابعها إن قناعتي بهذا التصور تعضدها التغيرات والتطورات الحاصلة في عالم اليوم المؤسَّسَة لمجتمع المعرفة الذي هو مجتمع القراءة، هذا المجتمع الجديد القائم على الانفجار المعرفي ومن عجائبه أنه لا يؤدي إلى التشظي وإنما يؤدي إلى الاندماج، ومن أكثر حالات الاندماج إثارةً اندماجُ الأفكار القائم على المتناقضات أكثر من التوافقات، وقد أسقطت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات -الركيزة الأساس لمجتمع المعرفة- في أذهاننا كثيرا من الحواجز لتتآلف الأشتاتُ. ولعل من بينها ما نحن بصدده اللغة العربية والإبداع والابتكار والريادة.

"بعد الثورة التي شهدها العالم في مجال الاتصال و المعلومات ازدادت التقنيات في التطور المتسارع، فقد ساعدت تطبيقات المعرفة العلمية على توفير مجالات كبيرة للاختيار و دوائر واسعة للفعل دون أن تكون ثمة قيود مكبلة للحركة، بل يكون فيه الاختيار و الفعل على درجة كبيرة من الاستقلال.إن هذا الاستقلال يعد سمة من سمات الثقافة الرقمية التي سعت إلى إزاحة كثير من الإكراهات التي كانت تخلق حالات من الانزعاج النفسي يصل في بعض الأحيان إلى درجة المرض."٥

ولعلنا هنا في هذه الورقة البحثية نريد أن نتحرر من بعض الإكراهات التي جثمت على العقل العربي ردحا من الزمن، فأعاقت نموه وأضمرت مواهبه؛يقول بيار أشار متحدثا عن علاقة اللغة ببنية التفكير لدى الفرد: "اللغة ظاهرة اجتماعية ترتبط بناها ارتباطاً وثيقاً ببنى الفكر السائدة في مجتمع لغوي معين، و هو ما يؤكد افتراض العلاقة الطردية بين التخلف في مجال اللغة و التخلف الحضاري. "٦، فاللغة بما هي الوسيط المحايث لكل ما يتناقله الناس من معان فإن ما ينتج عنها من آثار سواء كانت مادية أو معنوية يوصف من بعد ذلك -باللغة ذاتها- بالتخلف أو الحضارة، فلغتنا حياتنا، وجودة هذه الحياة متعلقة بما ننتجه من معان وفهوم حولها وضمنها عبر وسيط اللغة، كيف لا وبناء الكون متزامن مع تكون اللغة كما يصف ذلك سعيد بنكراد: "فإن بناء الكون ذاته يتزامن مع تشكل اللغة، فهذه تقود إلى ذاك ضمن ضرورة مطلقة لا يمكن استبدالها بضرورة أخرى. و لا شيء يمكن أن يستقيم خارج اللغة، و خارج إرادتها في تصريف الفكر و الانفعالات وفق ما يتوفر لديها من مفاهيم و مصطلحات."٧ .

وما دام الأمر كذلك؛ اللغة هي الوعاء الحاضن لأفعالنا، فإنه بات من الواجب علينا إعادة النظر فيما نقوله، لأن ما نقوله بكل بساطة هو ما نتصوره، وما نتصوره هو نسق من أنساق التفكير باللغة كما يقول الفيلسوف لايكوف و جونسون: "إن نسقنا التصوري ليس من الأشياء التي نعيها بشكل عادي، إننا في جل التفاصيل التي نسلكها في حياتنا اليومية، نفكر و نتحرك بطريقة أقل أو أكثر آلية و ذلك تبعاً لمسارات سلوكية ليس من السهل القبض عليها.و تشكل اللغة إحدى الطرق الموصلة إلى اكتشافها. و بما أن التواصل مؤسس على أسس نفس النسق التصوري الذي نستعمله في تفكيرنا و في أنشطتنا، فإن اللغة تعد مصدراً مهماً للبرهنة على الكيفية التي يشتغل بها هذا النسق."٨. وعلى هذا الأساس فإن مراقبة اللغة وصنيعها هو الذي حداني إلى البحث في علاقتها بتفكيرنا الذي هو مادة إبداعنا وابتكارنا، وإلى دعوة تجديد اللغة التي نتعامل بها أي توليد اللغة من اللغة لإعادة بناء واقع جديد مليء بالإبداع والابتكار، الكلمات مادته الخام والأساس، لشق الطريق نحو الريادة.

ولبناء واقع جديد فإن ابستمولوجيا المعرفة تتطلب أحيانا عنفا لغويا لنقض واقع قائم مسيطر واستبداله بواقع لغوي جديد يكشف لنا المُمكن المتخفي وراء الكلمات. ووجب علينا في هذه الورقة تلمس ذلك الواقع القائم من خلال تشخيص لغتنا اليومية التي بدأنا النطق بها منذ تمتماتنا الأولى؛ كتب جان-ديدييه فانسان Jean-Didier في كتابه "قلب الآخرين": "منذ تمتماته الأولى وحتى ألفاظه الأخيرة يتفوه الإنسان بملايين الكلمات: ١٨٤٨٠٠٠٠٠ كلمة كمعدل وسطي خلال سبعين سنة."٩ فما رصيده المعرفي منها؟ وهل يمكن أن تكون مادةً للحياة أو الموت؟ قد يبدو الأمر هنا بعيدا عن الدرس اللغوي، لكن ورقتي تروم بعث نفَس جديد لذلك الدرس الذي عكف على تدريسنا وظائف اللغة الستة عدا أنها وسيلة لتغيير الحياة، وتجدر الإشادة هنا بتقرير لجنة تحديث تعليم اللغة العربية الموسوم بـ "العربية لغة حياة"١٠ الذي اشتغل واضعوه على بعث الوظائف الأدائية للغة العربية من إقناع وحجاج وتفسير وإصدار أحكام التي ترتبط ارتباطا متينا بمهارات التفكير العليا التي بها نشق طريقنا نحو الابتكار والإبداع والريادة. لذلك سأجنح بما للكلمة من معنى عن درسنا ذلك الذي تجاهل تلك الوظائف الأدائية، مستأنسا بالاقتباس

الآتي: "واليوم، تغيّر سياق التطبيع تغيرا شاملاً. أوّلاً لأننا في مرحلة سيطرة وضعية من الطراز الطبيعي، إذْ أن التداخل بين مجال علوم الأعصاب التي تشهد نجاحا ملموسا، والمجموعة الغامضة لعلوم الإدراك sciences cognitives ، قد أدّى إلى برمجة جديدة لمجالات العلوم. وثانيا، لأن البنية الديموغرافية للعلم المعاصر تفرض على الجيل أن يتغير تغيرا سريعا لا يسمح له بإعادة توليد المعرفة. فهناك عددٌ كبير من الباحثين الذين يطرقون باب علوم اللغة بعد تكوين أنفسهم في الهندسة، وهم يجهلون كل شيء عن التكوين البطيء الذي أدّى إلى نتائج اللسانيات المقارنة، ويجهلون بالتالي كلّ شيء عن القيم الابستمولوجية الضمنية التي تناقلها خلال هذا التكوين. وهذا لا يعني بالضرورة أنّ كارثة عامّة قد وقعت، فالإبداع يقوم بعض الأحيان على النسيان."١١

وعلى خُطى هذا النسيان الإبداعي لذلك الدرس اللغوي التقليدي؛ دعونا نتقرب إلى واقعنا ونحلل نسقنا اللغوي الذي يُنتج معارفنا فيه، ببراديغما١٢ جديدة تبحث عن أثر نسقنا اللغوي على نسقنا المعرفي في حياتنا، وأقول مسبقا أنني سأكتفي بقدح زناد الفكر في هذه الطريق الجديدة في الدرس اللغوي، مكتفيا بضرب الأمثلة والنماذج الخاطفة المُشَخّصة لذلك التأثير، لعلها تحدونا إلى إعادة النظر في مقولاتنا التي تقتلنا وتقتل فينا الذات الفاعلة؛ يقول جوزيف وكارولين ميسينجر: "كلمات عادية، كلمات ذكية، كلمات مرّة، كلمات يائسة، كلمات قاسية، كلمات مضحكة، كلمات لاذعة، كلمات قاتلة... كلمة واحدة قد تختصر كل شيء: الانفعال، الألم، المأساة، الشعر، الحب، تجربة الحياة. إنها عالم بأسره، إنها فلسفة متكاملة. فالكلمات ليست مُجرّد أصوات تحمل معنى، إنها تحمل أيضا انفعالا يوجَّه إلى المستمع كمخرز أو ينساب في أذنيه كإكسير شاف."١٣

فلماذا تأخّرنا؟ ولماذا لا نبدع ولا نبتكر؟ ولم لسنا في الريادة؟ فهل ما سمعناه وما نسمعه مخرز يشدّ تلابيبنا عن التقدم؟ ربما نعم. وذلك ما أريد إثباته من خلال إعادة الاستماع لما نقوله لأنفسنا وما قيل لنا منذ كنا طفلا إلى أن نكون أو لا نكون يافعين أو كهولا أو شيوخا، آباء أو مربين أو صانعي قرار أو أي مصير آخر.

• تفوقنا الدراسي الفاشل كشكل من أشكال الريادة المدفوعة من الخارج عبر وسيط اللغة:

فلنبدأ بطفولتنا ودعونا نتذكر ما قيل لنا وهم يدفعوننا للدراسة والتفوق فيها بحثا عن ريادتنا، فهل تفوقنا؟ يقول جوزيف وكارولين ميسينجر متحدثين عن استعمال الأهل لمقولة "يجب أن تهلك نفسك بالدرس لتنجح في الشهادة الثانوية": "الرسالة الضمنية رسالة عنيفة. سيضطر ابنكم، أو ابنتكم، إلى إهلاك نفسه فعليا لكي يطيعكم وينجح في نيل تلك الشهادة اللعينة التي تحتاجون إليها. ثم، في وقت لا حق، بعد سنوات عدّة سيهلك نفسه مجددا لإرضاء رئيسه في العمل –الوالد البديل- لئلا ينضم إلى قافلة المصروفين من العمل. سيهلك نفسه بالعمل حتى يصاب بجلطة في القلب أو بورم سرطاني، لا سمح اللها هذه الرسالة هي بذرة الشعور بالذنب، والشعور بالذنب هو، وفقا لبعض الباحثين في علم الأورام، أحد العوامل المساعدة على ظهور السرطان."١٤

ومن لا يتذكر هذه العبارة: "إن لم تدرس، تصبح عاطلا عن العمل "يقول جوزيف وكارولين ميسينجر محللين هذه العبارة: "إذا حصلت على علامات جيدة سنكون فخورين بك، يقول ذلك الأب بكل زهو وأنانية؛ والمعنى المضمر هو: تملقني ولا تجرح كبريائي"لكن الولد، الذي يطالب بحقه في الحصول على مساعدة فاعلة من والديه، يعترض بقوله: هذا آخر همّ على قلبي . لم يؤخذ شعوره هو بالفخر في عين الاعتبار."١٥ ، فمنذ كنا صغارا أُضمر نجاحنا في كلمات قاتلة لذواتنا واخترقت لاوعينا وجعلتنا ننجح للآخرين و نتفوق من أجلهم وإرضاءً لهم حتى ولو كانوا والدينا، فمنذ كنا صغارا نخر ذلك الأداء اللغوي في أدمغتنا وتجلى في سلوكياتنا، وحدّ من طموحاتنا وجعلها تنتهي عند إرضاء صاحب الصوت الأعلى الذي لقننا بأبوية قاسية تجاهلت وجود ضمير المخاطب أنتَ، فماتت الذات وخبا الصوت؛ يقول جوزيف وكارولين ميسينجر مرّة أخرى:"الطفل كائن يتمتع بالذكاء، وقادر على الإحساس بالمشاعر والانفعالات تماما مثل الشخص الراشد. وهو بالتالي كائن من الضروري احترامه. ويمرّ هذا الاحترام باستخدام صيغة المخاطَب (أنت) عندما نتوجهون إليه."١٦

لعلنا نفهم سر أننا لسنا في الريادة، لأن الإبداع مات فينا طفلا صغيرا، قتلته كلماتٌ والدينا، إنه خطأ في التعبير مغلّف بالحب والعاطفة، ولكن لا يمنعنا ذلك الحب من قول الحقيقة للآباء الجدد:

هناك كلمات قاتلة لا تقولوها أبدا.

• قتل الابتكار والإبداع عبر وسيط اللغة:

عادة ما يستعمل الأهل أو رب العمل أو المعلم هذه المقولة :"على مهلك! يجب أن تتوقف"؛ حرصا منهم على من هو تحت رعايتهم، إمعانا منهم في الحذر عليه، أو تعجلا منهم في رؤية النجاح من المرة الأولى، ألا نطالع اليوم ما يسمى بالتعليم عن طريق الخطأ، للأسف عبارة على مهلك وفعل الأمر توقفْ يُجهضان ذلك التعلم؛ يقول جوزيف وكارولين ميسينجر:"عندما تُستعمل كلمة مهلاً بكثرة وتصبح محط كلام، تشير إلى شخص يكبح نفسه بقوة ما إن تعتريه رغبة في الإقدام والعمل والتصرّف."١٧ حيث لا حظ الباحثان أن كلمة على مهلك تُوقف الطفل عن النمو الفكري والنفسي؛ يقول جوزيف وكارولين ميسينجر: "توقفْ، و انتظرْ هما فعلان مفيدان عندما نضطر إلى قطع الطريق، لكن لا فائدة منهما للسير في طريق الحياة."١٨ وما أكثرهما في حياتنا اليوم، ففعل توقفْ له مرادفات كثيرة وحقل دلالي كبير يتسع للحظر والمنع والحبس والإغلاق والتقييد والتحفظ والتضييق، وتؤخذ قياسا على وضعنا العام الذي تردت فيه حرية الرأي والديمقراطية والإبداع، فهل نحن في الريادة؟ أليست هذه هي اللغة السائدة في معجميتنا السياسية والثقافية والإعلامية القاتلة للإبداع والابتكار؟

• احتكار الذكاء على الراشدين عبر وسيط اللغة:

وبعد قتل الذكاء والإبداع في طفولتنا، صرنا نبحث عنه عند من هم أكبر منا أولئك الذين اغتالوه فينا -مهما كانت شخصيتهم- مادية ممثلة في الأب أو الأم أو المعلم أو الحاكم، أو معنوية ممثلة في أنظمة الحكم ومؤسساته ابتداء من المدرسة إلى أعلى تمثيل مؤسسي للحكم، و تعلّمنا- قسرا - عبر وسيط اللغة أن من هو أكبر منا أذكى منا وأرشد وأعلم، وأن الصغير لا يعرف، فمات فينا ذلك الطفل الفضولي الذي إن أُشبع فضوله صار مبدعا؛ يقول جوزيف وكارولين ميسينجر: "هذا النوع من العبارات: أنت صغير جدا، ستفهم عندما تصبح كبيرا، يُنْزَل الولد إلى مستوى الأبله. بهذه الكلمات،نكبت فضوله الطبيعي. وتعبّر هذه الصيغة الكلامية عن رفض اعتباره كائنا يتمتع بملكة الذكاء. عبارة أنت ما زلت صغيرا جدا عبارة تُدخل في ذهن الطفل فكرة أنه لم يصبح بعد كبيرا بما فيه الكفاية ليطّلع على سر والديه. ولأنه صغير، ينبذه الكبير. تُظهر هذه الرسالة بشكل واضح عدم وجود إرادة لدى الأهل لتنشيط فضول أولادهم."١٩ ويضيف جوزيف وكارولين ميسينجر شارحين هذه العبارة:"الطفل الذي لا يعطى الحق بأن يكبر هو طفل لا مستقبل له. تأملوا في هذه الجملة: ستفهم عندما تصبح كبيرا، إنها تحمّل مسؤولية كبيرة للوالدين اللذين يستخدمانها للتخلص من هذا الفضول الطفولي... الولد الذي يمنع من إشباع فضوله المشروع، يصبح فيما بعد راشدا غير مهتم بمشاكل مجتمعه، فيستسلم ولا يقوى على التمرد في وجه الظلم ويصبح في الكثير من الأحوال أولى ضحاياه وعندما يحين موعد الانتخابات، سيمتنع عن الإدلاء بصوته لأنه لن يكون قد كبر بما فيه الكفاية لفهم اللعبة السياسية."٢٠

حتى عامياتنا المترهلة مليئة بنسق لغوي قاتل للإبداع من قبيل "من فاتك بليلة فاتك بحيلة"، ويتطلب من المهتمين بالبحث عن الخيط الرفيع بين لغتنا والإبداع والابتكار وغيرها من المواضيع التي استُبعدت في الزمن الماضي عن الدرس اللغوي أن يتوقفوا مليا للنظر في محتوى هذه العاميات الذي يتسلل ببطء في لاوعينا الجماعي، فيقتل فينا كل جميل ويعوّم يومياتنا بالاكتئاب والفشل؛ يقول أحمد يوسف: "إن التحديث في المجتمع مهما كانت مستوياته لابد أن يتجلى في أفق اللغة وتحولاتها، وأن أزماتنا لا يمكن حصرها في زاوية واحدة مثل الفصحى مثلا، بل حتى في العاميات المترهلة التي تعكس مستوى فضيعا من التدني الثقافي والإسفاف الفكري؛ لأنها تنقل باستعاراتها تصوراتنا للعالم.."٢١. ولْنفكّر في تعويم المجتمع في مسابح لغوية جديدة ولو كان بلغته العامية مثل المحتوى المعرفي الذي تنقله العبارة اللغوية الآتية: "أصغر منك بيوم أعلم منك بسنة"، كبديل عن نظيراتها القاتلة التي يزخر بها معجمنا اللغوي العامي والفصيح.

أليست هذه زاوية للنظر في عمق علاقة اللغة العربية بالإبداع والابتكار والريادة؟ وبمعنى أقرب هل يمكن ربط العلاقة بين معجمنا اللغوي ونسقنا المعرفي في حياتنا اليومية وتأخرنا عن الريادة؟

يقول محمد محمد يونس علي

مشيرا إلى حل هذه المشكلة التربوية التي منشأها اللغة التي نتعامل بها في يومياتنا: "ولا يمكن أن يكتمل الجهد التربوي نحو التخلص من مشاكل التخلّف دون توعية الأسرة بأهمية التخلص من التربية القسرية التعسفية التي تجرّد الطفل من جميع سمات الاستقلال، وتكبله بعادة الاعتماد على الآخرين، وتضعف ثقته بنفسه. وإذا ما قبلنا فكرة أن التقدم هو تخليص الراشدين من مظاهر السلوك الطفولي تلك التي سميناها مظاهر التخلف، فسيدفعنا ذلك إلى استحسان فكرة التعامل مع الطفل على أنه رجل صغير، كي يكتسب صفات الإنسان الحضاري في طفولته."٢٢ ، ولا شك أن وسيطنا الأول في التربية لغتنا، فنحن بحاجة إلى تجديد الخطاب التربوي لاستشراف نتائجه في حياتنا وفق نظريات اللسانيات العصبية.

• إلقاء اللوم على الآخرين، أعراض الإصابة في خطاباتنا اليومية:

من مظاهر تخلفنا الحضاري التي محملها على الخطاب اليومي الذي يسكن تلافيف أدمغتنا وينخر ذواتنا كل يوم، إلقاء اللوم على الآخرين، الذي مؤداه اللغوي نسب الأسباب والأوضاع والنتائج إلى ضمير الغائب الذي لا يملك توصيفا واضحا بقدر بما يملك قوة السيطرة على حياتنا وتجميد ذواتنا وتنويمها بالتفلت من تحمل المسؤولية، ويومياتنا مليئة بالنماذج الصارخة عن تفشي هذا النسق اللغوي، فمثلا حين يُسقط طفلنا الصغير كأسا من يده أو أي شيء آخر فيبادر بالصراخ خوفا مما فعل، نهبُّ إليه لإسكاته وطمأنته بأدائنا اللغوي أنه لم يكن السبب طلبا منا لسكوته فقط وعدم إضجارنا بصراخه لأننا مشغولين بشيء آخر، والأدهى والأمرّ أننا قد نبادر بضرب تمويهي للكأس المتكسرة وكأننا نعاقبها عن سقوطها، فتترسخ في لاوعيه عبر وسيط اللغة عدم تحمل المسؤولية وإلقاء اللوم على الآخرين، فامتلأت حياتنا باللامبالاة وعدم تحمل المسؤولية المُفضي إلى التردي والنكوص، يقول محمد محمد يونس علي: "فالخطأ والتقصير دائما منسوبان إلى الآخرين حتى انعكس ذلك في طريقتنا في التعبير اللغوي، فبينما يقول الطالب الإنكليزي عند تأخّره عن حضور الدرس مثلا: I missed the bus "ناسبا الخطأ إليه يقول الطالب العربي "لقد فاتني الباص"ناسبا الخلل إلى الباص."٢٣ وهذا ما أشار إليه ماجد الكيلاني في تفسيره لظاهرة لوم الآخرين بعادة الاعتماد على الآخر وعدم الاستقلال٢٤. ويومياتنا مليئة بأداءات لُغوية تُلقي بكل أنواع الفشل على غيرنا، وتحمّل المسؤولية لضمير الغائب. فلنراجع مقولاتنا المغيِّبة للأنا الفاعل أي للذات الفاعلة. فنحن بحاجة إلى كلمات تقرب المسافة بيننا وبين واقعنا، لنحوِّل أحلامنا إلى حقيقة، ولنحوِّل مشاكلنا إلى حلول عبر الوسيط نفسه الذي ينتج أحلامنا وينقل تمثلنا للعقبات والمشاكل أي لغتنا.

• الكلمات والمسافة بين الواقع، الطاقة الحيوية للغة:

المجتمعات المتقدمة تمتاح من معين لُغوي مُفعم بالحيوية والنشاط والفاعلية، فمجتمع كاليابان لديه في خزّانه اللغوي ثلاثة كلمات يؤمن بها ويُغذي بها عقله كل يوم؛ الكلمة الأولى كونيشوا ومعناها أهلا وبها يحيون بعضهم البعض، والكلمة الثانية أريجاتو ومعناها شكرا وذلك لأنهم يُقدّرون بعضهم البعض، والكلمة الثالثة كايزن وتعني التحسين المستمر ذلك لأنهم يُحسّنون كلّ شيء يقومون بعمله ويعملونه أحسن من أي شخص آخر، وهذا يدل على أن ما نؤديه بلغتنا من معان ينعكس على نسقنا المعرفي في حياتنا اليومية، وكلما احتفظنا بكلمات إيجابية كلما انعكس ذلك على واقعنا، وقرّب المسافة من أهدافنا، وزاد من تحفيزنا وإثارتنا للدماغ مركز العمليات العقلية المنتِجة للأفكار الإبداعية الموصِلة إلى الريادة؛ يقول الدكتور أندرو نيوبيرغ ومارك روبرت والدمان في كتابهما الكلمات وتأثيرها على العقل: "من خلال الاحتفاظ بفكرة إيجابية أو تفاؤلية في ذهنك، أنت تحفّز نشاط الفص الجبهي. تشتمل هذه المنطقة على مراكز اللغة التي تتصل مباشرة بالقشرة الحركية المسؤولة عن دفعك إلى القيام بفعل. وكما أظهر بحثنا، كلّما ركّزت لفترة أطول على تلك الكلمات الإيجابية، كنتَ أسرع في التأثير على مناطق أخرى في الدماغ. تبدأ وظيفة الفصّ الجداري بالتغيّر، وهذا يغيّر إدراكك لنفسك وللناس الذين تتفاعل معهم. ستؤدي نظرتك الإيجابية بشأن نفسك إلى جعلك ترى الأشياء الخيّرة في الآخرين، بينما ستجعلك النظرة السلبية تجاه نفسك تميل نحو الشك والارتياب. ومع مرور الوقت، سيتغير تركيب المهاد، ونحن نعتقد أن هذا يؤثر على طريقة إدراكك أو فهمك للواقع."٢٥، وإدراكنا لأنفسنا لا شك يتم عبر حواراتنا الداخلية

على محمل اللغة، وكّلما ارتقت لغتنا ارتقى تعاطينا مع واقعنا، يقول أحمد يوسف: "إن بناء الإنسان يمر لا محالة بعملية التطهير النفسي الاجتماعي للحالات المرضية التي تسكن الذهنيات، وتتجلى أعراضها في الخطابات."٢٦

فمجتمعنا العربي يعوم في مسبح لغوي ملوّث وموبوء بالفيروسات اللغوية القاتلة للذات الفاعلة، يقول جوزيف وكارولين ميسينجر: "هناك كلمات تكبح الحياة، كلمات تهزّ الثقة بالنفس، كلمات تقلّل من احترامنا لذواتنا وكلمات تقتل. ولكن هناك أيضا كلمات تحرّر، تكافئ، تفوح منها رائحة عطرة ونصغي إليها بافتتان."٢٧، ونحن بحاجة إلى مراجعة شاملة لمقولاتنا اليومية، وأن نقتنع بأن كل إبداع جديد هو اختراق لفضاء اللغة، والعربية ليست قاصرة على إدراك ذلك، بل إن أداءاتنا بها هي التي تسيء إليها. يقول عبد العلي الجسماني: "إنّ اللغة، ومفرداتها و وحدتها الكلمة، أداة زمانية منها تستبان ما لدى المرء من دوافع إنسانية نبيلة وما تنزع إليه نفسه من نوازع فيها التسامي وفيها الإبداع وفيها أحاسيس النبل."٢٨

• الإبداع والابتكار في مدينتنا = التآمر:

كلنا ننشد مدن المعرفة التي يزدهر فيها الابتكار والإبداع وتعتبر هي بذاتها شكلا من أشكال الريادة في عصر المعرفة، ولكن ماذا عن مدينتنا العربية؟ يقول أفلاطون: "إن فساد المدينة يبدأ بتزوير الكلمات"، وتزوير الكلمات هو أخطر أنواع إرهاب الخطاب، ويشكل وسيلة مُثلى لقمع الذات الفاعلة المبدعة المبتكرة، وذلك ما تعج به المعجمية السياسية الحالية التي تروّج لنظرية المؤامرة؛ فكلّما أراد شخص ما أن يُبدع أو يبتكر قُمِع بفيروس لغوي اسمه التآمر، فالمعجمية السياسية هي صناعة لغوية ثقافية بالدرجة الأولى ولا يمكن تحقيق الريادة إلا بإصلاح هذه المعجمية، ولم يَعُد مقبولا تحييد المثقف عن السياسة كما لم يعد ممكنا أصلا تحييد اللغة في التفاعل بينهما كما أفهمه من قول عبد السلام المسدي: "إن المسكوت عنه قد خرج إلى فضاء المصرَّح به، وإن اللغة في قلب الرحى ضمن الحرب الجديدة، حرب الاختراق الثقافي التي تحتكم إلى إستراتيجية الاستهداف في كل أضرب الصراع على واجهاته الأربع...إنه التسلل إلى كوامن الذات الفردية المؤدي إلى السيطرة على منافذ الذات الجماعية."٢٩ ، و يقول جوزيف وكارولين ميسينجر: "يتكلمون حاليا عن التآمرية، وهو تعبير جديد شديد الرواج"حسبما سمعت هو تعبير نموذجي يصدر عن متكلّم خاضع لتأثير الغير وقابل لأن يتلاعب به الآخرون. إن الذي يسهّل كلامه بهذا التعبير يتخلّى عن حالة التيقظ ويترك محيطه يدخل مجاله الشخصي."٣٠ ، وهذا ما نلمسه سائدا في مدينتنا حيث يقول محمد محمد يونس علي: "ما أسهل على العربي أن يحل جميع مشاكل العالم، وهو يحتسي فنجانا من قهوة، وربما قبل أن يرتدّ إليه طرفه، فبلحظة من الإلهام الذي لا يكاد يُخطئ يستطيع كثير من الناس أن يتجاوز النظر إلى ظواهر الأمور ويتعمق في نيات الناس، وفي غياهب الغيبيات ليدرك بثقة كاملة أن المسألة قيد الدراسة أو النقاش لا تعدو أن تكون (أو ناشئة عن) محض مؤامرة يقوم بها أعداء الأمة أو الجن أو قوة أخرى خفية لا نعرفها (كالماسونية ونحوها)، ولا يمكن أن تكون ناشئة عن أخطائنا أو تقصيرنا أو سوء سلوكنا."٣١. وهذا ما دأب عليه حاكم مدينتنا بتعويمنا فيه بأن كل مبدع مُعارضٌ مُتآمر، وأوعز إلى أبواقه الإعلامية ليرددوا ذلك على مسامعنا كل يوم، فلغة حاكم مدينتنا تنخر عقول الشعب وتحجب عنهم الحقيقة التي يجب أن يروها ويتكلموا عنها، فكل مجموعة معارضة في الرأي تشكل خطرا على المصالح العامة وعلى الأمن القومي وتدرج في خانة الإرهاب وتُنسب إليها كل الشنائع، وتُسخر أدوات الإعلام لصب وابل لغتها وخطابها على هذا النحو فيخترقون عقول الناس، وشعارهم اكذب واكذب حتى يصدقوك. لأن صناعة القيمة هنا بلفظ أو أداء لغوي يتم إشاعته بين الناس لهو أمر بسيط من حيث التنفيذ، ولكنه معقد من حيث الدراسة والتحضير، إذا علمنا أن عملية الاختراق العقلي عبر وسيط اللغة –العامل الأسهل تلاعبا به والوسيلة التي لا غنى للناس عنها في فهم ما يحيط بهم- تتم على مستوى اللاوعي. إنها مادة صناعة الإيديولوجيا كما يقول روبول: "لكن الميدان المفضل والمتميز للإيديولوجيا هو اللغة، حيث تمارس الإيديولوجيا وظيفتها الخاصة. وبواسطة اللغة توفر الإيديولوجيا على السلطة اللجوء إلى العنف الذي تعلقه اللغة وتختزله إلى حالة تهديد بعيدة، كآخر دليل بشكل مضمر. وبواسطة اللغة تجعل الإيديولوجيا العنف مشروعا حينما تلجأ إليه السلطة مُظهرة إياه كحق، كضرورة وسبب فيه مصلحة الدولة، وكعلة وبإيجاز محاولة إخفاء طابعه كعنف."٣٢.

فمات الإبداع في مدينتنا الحالمة أن تكون مدينة معرفة، بيئة خصبة للابتكار ومطية سريعة للريادة، و حُوّر حلمنا بتحوير العبارة الدالة عليه، فأصبحتْ مدينتا مدينةَ المعارف ليس جمع معرفة، وإنما مرادف المحسوبية والمحاباة واغتيلتْ المواهب والكفاءات، وغلّفت اللغة أحلامنا وحوّرتها وجرّمتها بإيعاز من مالك الإعلام والمعلومة.

فهل يمكن التفكير بهذا العمق أن النسق اللغوي يسكُن أدمغتنا ويسيطر على أفعالنا وسلوكياتنا منذ كنا طفلاً؟ وهل يمكن الاقتناع بأن النهضة الريادية تقوم على الابتكار والريادة، وأول خطوة لهما التحرر من ربقة أفعال الأمر والنهي الجاثمة على عقولنا، يقول أحمد يوسف واصفا ما يُؤدَّى باللغة ويشكِّل سلطة على العقل: "لقد خلقت شكلا من أشكال التدجيل الذي ضلّل العقول ردحا غير قليل من الزمن، و ولّد هذا الوضع المُزري شعورا ممزوجا بالنفور لدى المتلقي. فكانت اللغة –من حيث هي نسق سيميائي دال– سببا من أسباب تكريس حالات التردي في يوميات الإنسان العربي؛ ينضاف إليها ذلك الشحن التاريخي لها بالقهر والتسلط والاستبداد."٣٣ ؛ ومن مظاهر ذلك الاستبداد تسمية الأشياء بغير مسمياتها كنَعْت كل إبداع تآمرا ومؤامرة، وهلم جرا من ذلك التحوير، يقول أحمد يوسف مرة أخرى: "ومن هنا حنّطت الإيديولوجيات والأنظمة الأبوية جمال اللغة العربية، فجعلتها أَمَةً في قصور الإيديولوجيات المُشيَّدة فلا تتحدث إلا عن الكلام المُباح، وتصمت عندما تشرق الشمس في الصباح. ولا وظيفة لها إلا التبرير واستبدال الهزيمة بالنكسة واليقظة بالنهضة والتخلف بالسير في طريق النمو؛ وما إلى ذلك من المفردات التي تعج بها المعجمية السياسية في الخطاب العربي المعاصر، و تنوء بحملها العربية، و وسمتها بميسم عار التخلف."٣٤

• الحياة علل لغوية، المعرفة كلحظات لغوية :

دعونا نستعيد في هذا العنصر مُسلمتنا التي انطلقنا منها، وهي العلاقة بين نسقنا اللغوي ونسقنا المعرفي، أي بين استعمالنا للغة وتخلفنا جرّاء ذلك الاستعمال، ودعونا نستعيد قول نبيل علي متحدثا عن اللغة أداةً لحل المشكلات: "تنفرد اللغة بشبكة من الصلات الوثيقة تربطها بجميع فروع المعرفة فلسفة وعلوماً إنسانية وطبيعية وفنونا وتكنولوجيا. إن هذا الموقع المحوري للغة على خريطة المعرفة الإنسانية قد أهّلها لتكون أداة فعّالة لحل المشكلات خصوصًا بالنسبة إلى مشكلات العصر التي تتداخل فيها فروع المعرفة المختلفة."٣٥، ففي حياتنا اليومية، يوجهنا سلطان اللغة، فيتحكم في حياتنا وفي مواردنا وفي قدرتنا على الفعل بل في قدرتنا على توسيع دائرة الممكن لدينا، في منازلنا مثلا يفعل الأداء اللغوي كيف نتخلص من الشيء؟ فعله فينا ويوجهنا إلى أبسط المخارج وهو التخلص من الشيء. خُذ لك مثالا: كيف يَصنع هذا الأداء اللغوي فجوة في العقل العربي، ففي البيت العربي كلنا نتصرّف تحت سلطان كيف نتخلص من الشيء؟ فنرمي النفايات تخلّصا من غير وجه فائدة، بينما عقول أخرى استطاعت ترميز لغتها من جديد أي استطاعت إعادة إنتاج لغتها فغيّرت الأداء اللغوي كيف نتخلص من الشيء؟ إلى كيف نستفيد من الشيء؟ فعصفت أذهانها؛ وأثمر ذلك العصف مخارج لغوية جديدة فأصبحت النفايات كنزا يجب استثماره لا عبئا يجب التخلص منه، فظهر عندها مصطلحات لغوية جديدة مثل تثمين النفايات، والرمي الانتقائي والفرز، واستطاعت بفضل أداء لغوي جديد توفير الطاقة وحماية البيئة وتوفير مناصب عمل وشق طريقها نحو الريادة.

إنه فعلا الذكاء اللغوي الذي يجب تدريسه لطلابنا ولكل أفراد مجتمعنا العربي؛ "ومن أحد الذكاءات، التي جاءت بها نظرية جاردنر وتلقي عليها الضوء بشدة..الذكاء اللغوي..وهو لا يعني ببساطة القدرة على فك شفرة المعلومات المكتوبة أو المسموعة (والتي تعتبر ذات وظيفة أو منفعة أدبية)، ولكنها تعني – في المقام الأول- تطوير و تنمية مقدرة الطلاب على استخدام اللغة كوسيلة لتحسين الحياة وكأداة لنقل ما في الحياة. إن قلب الكلمة هي التقنية الأولى للتشجيع على ذلك.."٣٦

فنسقنا المعرفي هو من جنس نسقنا اللغوي، لأن الأوّل انعكاس مباشر للأخير كما يقول ستيفن بوكيت:"إن التفكير تبرز قيمته في المستوى الأساسي للكيفية التي تؤثر بها الأفكار عندما يتم التخطيط لها مع بعضها البعض(معًا) وتكون فهما مشتركا لعدة عناصر متفرقة، والتي تصنع حياتنا في مجملها..إن الأفكار الرئيسية تصب مباشرة في إدراكنا لماهياتنا و لذواتنا واتجاهاتنا والقيم الأساسية التي نؤمن بها فيما يخص الحياة..إن الأفكار

الأساسية التي نحيا بها (قصدياً أم غير ذلك) يمكنها أن تحد من حريتنا أو أن تمنحنا إياها. إن الانعكاس الذي تحدثه الأفكار يسمح لنا بأن نُعامل هذه الأفكار بعناية ودراسة أكبر..إن هذه الأفكار غالبا ما تظهر كاستعارات مجازية، نستخدمها في العموم.."٣٧

وحياتنا مليئة بالعلل المعرفية التي أصلها علل لغوية، لا يتسع المجال لسردها. فهل نحن العرب مستعدون لمراجعة أداءاتنا اللغوية وربطها بمخرجاتها المعرفية؟

و يراهن نبيل علي على اللغة في إشعال فتيل ثورتنا المعرفية، حيث يقول: "في ضوء ما سبق بميسورنا القول إن فجوة العقل اللغوي هي "الفجوة الأساس"التي يلزم رأبها من أجل بعث الحياة في أوصال آلة إنتاجنا المعرفي التي أصابها الشلل، وما أشح ما تنتجه: فلسفة وعلماً وفكراً وفنا و تقانة، واللغة –بلا مُنازع– هي القادرة على إشعال فتيل الثورة المعرفية، لكونها –كما سبق ذكره– رابطة العقد في المعرفة الإنسانية الشاملة، فهي –أي اللغة– الفرع المعرفي الوحيد الذي ينفرد بشبكة من العلاقات الوثيقة تربطه مع جميع فروع المعرفة من دون استثناء."٣٨، فكما هي الحياة علل لغوية، فإن ما وراء اللغة يجعلنا نقول بكل ثقة أن الحياة حلول لغوية. و بثقة في هذا النحو يقول محمد الأوراغي: "و باختصار شديد إذا كان لعنصر الإنسان، ضمن أركان التنمية، الدور الأساس في تطوير الإنتاج والزيادة في الخيرات، فإن للغة الدورَ الحاسم في تطوير قدرات الناس على التمرُّس بالعمل، وعلى الرفع المستمر من كفاءاتهم، و الإغناء المتجدد للخبرة التقنية، وتعميق المعرفة العلمية، وتوسيع الثقافة العلمية، ولها الدور المركزي في وقاية النسيج الاجتماعي من التفكك، وفي تهذيب السلوك الفردي، وترسيخ القيم الجمالية والحضارية الرفيعة، وخلق التوازنات النفسية، ونحو هذا من المجالات الكثيرة التي تتصل باللغة وبحملها الثقافي اتصالا مباشراً."٣٩

• اللغة والفشل، الكلمات النابية عرَضا للإصابة:

يقول عبد الرحمن عزي في معرض حديثه عن عنف اللسان وتراجع اللغة في الخطابات اليومية: "إلاّ أنّ المشهد أصبح ظاهرة مدمرة انعكست على حياة الأفراد والمؤسسات على حدّ سواء، وإذا كان مستواه الأدنى يتمثّل في عدم الرد على التحية مثلا، فإنّ مستواه الأعلى يصل إلى شتم الأفراد باستخدام الألفاظ النابية، وسب الدين، والعباد، والبلاد. ويمكن في هذه الحالة استبدال ما قاله الشاعر عن الأخلاق بقولنا: إنما الأمم اللغة ما بقيت، فإن هم ذهبت لغتهم ذهبوا."٤٠ ويقول جوزيف وكارولين ميسينجر في السياق نفسه: "تشكل الكلمات البذيئة الشائعة جزءا من مفردات الخاسر، سواء كان مراهقا أم راشدا. كل إخفاق وكل فشل هو مبرّر لاستخدام مثل هذه التعابير...وكلما تراكمت الكلمات النابية، ترسخت آفة الفشل في سلوكياته. يشير تكرار العبارات النابية في خطاب المراهق إلى ميل مرحلي وعابر للتفوه بالكلام القذر، وهو أمر يجب التنبه له."٤١، وبناء على هذين الاقتباسين أدعو نفسي وإياكم إلى تملي واقعنا، ولنصارح أنفسنا: أليس معجمنا اللغوي الذي تعج به شوارعنا بذيئا إلى درجة أنه يحول بينك وبين أبنائك وزوجك خدشاً للحياء والآداب العامة؟ وبدل أن نقرأه على أنه إسفاف أخلاقي، دعونا نقرأه تعبيرا لغويا عن الذات محاولةً لإظهارها ولفت الانتباه إليها و لو كان بالكلام البذيء.

أليست هناك علاقة بين الإدمان على الكلام البذيء والألفاظ النابية وبين الفشل والتأخر؟

ألا تدفعنا هذه الحقائق –وما أكثرها– إلى التفكير في مشروع لغوي دماغي، يعمل على استثارة العقل العربي بلغته، من خلال فهمنا لكيمياء النسق اللغوي التي تظهر مفاعيلها في معارفنا اليومية بكل أشكالها السلوكية والنفسية؟ وذلك ما أدعو إليه في ختام مداخلتي:

• الريادة كمشروع دماغي لغوي:

يقول الدكتور أندرو نيوبيرغ ومارك روبرت والدمان في كتابهما الكلمات وتأثيرها على العقل متحدثين عن كيفية بناء اللغة للدماغ : "كلما ركّزت على الكلمات والأفكار السلبية لفترة أطول، ازدادت إمكانية إتلافك فعليا للتراكيب الرئيسية التي تنظّم الذاكرة، والمشاعر، والعواطف (الانفعالات). ستشوّش نومك، وشهيتك، والطريقة التي ينظم بها دماغك السعادة، وطول العمر، والصحة. ذاك هو الحدّ الذي يمكن أن تبلغه قوة كلمة أو عبارة واحدة سلبية. وإذا عبّرت عن سلبيتك بالألفاظ، فإن المزيد من كيماويات الإجهاد ستُطلَق، ليس فقط في دماغك، بل أيضا في دماغ المستمع إليك."٤٢، ولنا أن نسأل أنفسنا في هذا المقام ونحن الذين تستبد بنا الشاشات وتنخر لغتها أدمغتنا وأدمغة الأجيال كل يوم: هل نتحرى ما

نسمعه؟

يقول عبد الرحمن عزي متحدثا عن تلاعب الإعلام بعقولنا كشكل من أشكال تعدية الطاقة اللغوية للغير للسيطرة على أنساقهم المعرفية من خلال السيطرة على كيمياء أنساقهم اللغوية: "إن ساحة الإعلام تشهد باستمرار صراعا من أجل فرض حقائق لسانية على الآخرين. ويمكن أن ترفع هذه الحقائق أناسا وتسقط آخرين، فلسان الإعلام يحدد ويحتكر معايير من يمكن اعتباره مثلا ناجحا أو فاشلا، وطنيا أو أنانيا، تقدميا أو رجعيا، مناضلا أو متخاذلا، مسالما أو مشاغبا... إلخ. وتتبادل هذه الألفاظ المواقع باختلاف القائمين على الخطاب اللساني السائد. وعلى هذا الأساس، يمكن أن يصبح الفاشل ناجحا، والرجعي تقدميا، والبخيل سخيا، والجاهل عالما، والمتخاذل مجتهدا...إلخ، وذلك جزء من عنف الإعلام."٤٣

ومن هنا وجب التفكير في مشروع دماغي لغوي عربي يُعوّم العقل العربي في لغة إيجابية تمكّن الدماغ من الاشتغال في محلول فسيولوجي خال من الملوثات والفيروسات لينتج لنا نسقا معرفيا فعالا في حياتنا على اعتبار أن اللغة هي البرنامج العقلي للإنسان؛ حيث يقول الدكتور أندرو نيوبيرغ ومارك روبرت والدمان:"بتغيير الطريقة التي تستعمل بها اللغة، أنت تُغيّر وعيك، وهذا بدوره يؤثر على كلّ فكرة، وشعور، وتصرف في حياتك."٤٤، ويضيف: "يُظهر بحثنا المستخدِم مسح الدماغ أن التركيز والتأمل في الأفكار، والمشاعر، والنتائج الإيجابية يمكن أن يكون فعّالا أكثر من أي دواء في العالم، خصوصا عندما يتعلّق الأمر بتغيير العادات، والتصرفات، والمعتقدات القديمة. ووفقا لأفضل ما توصلنا إليه من معرفة ومعلومات، فإن العملية بأكملها تنقاد بعمليات الدماغ المستند إلى اللغة."٤٥

ولعلنا بهذه الإطلالات الخاطفة والحافرة عميقا في درسنا اللغوي الذي أهمل كثيرا فعل الكلام و عدّه خارجا عن اللغة، و لعل تركيزنا على ذلك الفعل المؤدَّى باللغة يجعلنا نعيد التفكير في علاقة اللغة بواقعنا، ويجعلنا نطرح أسئلة جريئة حول هذه العلاقة اللامتناهية في فروعها، وحسبي في هذه الورقة البحثية أنّي اشتغلتُ على فرع متشابك بعنوان اللغة والإبداع والابتكار، ووجدتني أعيدُ النظر في لغتي كيف تجعلني أبدع، وكيف تعوقني أحيانا، وأجِد أمامي أن كل نظريات التفكير وأساليبه ومهاراته كالكورت وقبعات التفكير الست وغيرها من الفنون والأساليب، تستمد من اللغة المادة الخام للسؤال؟ فأجبتُ نفسي: إننا فعلا لا نستعمل لغتنا على نحو فعّال، أي أن فِعل كلامنا له علاقة بموقعنا الريادي.

ومن هذا المنبر أقول وأختم به تلخيصا لكل ما سبق: "أقيموا ألسنتكم تستقم حياتكم".

الهوامش

١ نبيل علي، العقل العربي و مجتمع المعرفة مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول، سلسلة عالم المعرفة، الكتاب ٣٧٠، الجزء الثاني، ص ١٠٠، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ٢٠٠٩.

٢ ليليا كوني دي هان، نعم، ولكن..القوة الكامنة في جمل التخاطب اليومي وكيف يصبح المرء أكثر ثقة من خلال التحدث الواعي، تعريب: الدكتور حسين عمران،مكتبة العبيكان/المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، ص ٩٦.

٣ على ضوء دراسات حديثة للمعجمية السياسية والثقافية والاجتماعية.

٤ محمد الأوراغي ، لسان حضارة القرآن، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠١٠، ص ٤١.

٥ أحمد يوسف، علامات فارقة في الفلسفة واللغة والأدب، منشورات الاختلاف الجزائر، الطبعة الأولى٢٠١٣، ص ١٠٦.

٦ نقلا عن محمد محمد يونس علي، قضايا في اللغة واللسانيات وتحليل الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص ؟

٧ سعيد بنكراد، وهج المعاني. سيميائيات الأنساق الثقافية، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص ٢٠٩.

٨ لايكوف و جونسون، نقلاً عن اللغة دفاتر فلسفية، نصوص مختارة إعداد و ترجمة محمد سبيلا و عبد السلام بنعبد العالي دار توبقال للنشر . ص٨٦

٩ نقلا عن جوزيف وكارولين ميسينجر، كلمات نقتل بها أولادنا لا تقولوها أبدا، شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ٠٤.

١٠ تقرير "لجنة تحديث تعليم اللغة العربية"بمبادرة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، يرجى الاطلاع على الموقع:.www arabicforlife.ae

١١ نقلا عن جوزيف وكارولين ميسينجر، كلمات نقتل بها أولادنا لا تقولوها أبدا، شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ٠٤.

١٢ يتصور توماس كون أن العلم في فترة من الفترات يحقق ارتباطا كليا بين نظرياته المختلفة؛ بمعنى أن هذه النظريات تؤلف كلاّ متماسكا، هو ما يطلق عليه النموذج، ويعملون من خلاله، إلا أنه يحدث أثناء وجود هذا النموذج والتزام العلماء به أن يأتي أحد العلماء ويضع يديه بطريقة أو باخرى، على كشف علمي هام يخالف الآراء السائدة في النموذج العلمي المعمول به فعلا ، فتتغير نظريات العلماء المعمول بها في ظل النموذج السائد لتحل مكانها نظريات جديدة، ترتبت على الكشف الجديد، ويبدأ العلم مسيرة أخرى وفق أفكار وآراء جديدة من خلال نموذج جديد مخالف تماما للنموذج العلمي المألوف. يُنظر توماس كون، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢، الكتاب ١٦٨.

١٣ جوزيف وكارولين ميسينجر، كلمات نقتل بها أولادنا لا تقولوها أبدا، شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ٠٤.

١٤ جوزيف وكارولين ميسينجر، كلمات نقتل بها أولادنا لا تقولوها أبدا، شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ٧٩.

١٥ جوزيف وكارولين ميسينجر، كلمات نقتل بها أولادنا لا تقولوها أبدا، شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ١٨١.

١٦ جوزيف وكارولين ميسينجر، كلمات نقتل بها أولادنا لا تقولوها أبدا، شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ٧٩.

١٧ جوزيف وكارولين ميسينجر، كلمات نقتل بها أولادنا لا تقولوها أبدا، شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ٤٢.

١٨ جوزيف وكارولين ميسينجر، كلمات نقتل بها أولادنا لا تقولوها أبدا، شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ٤٣.

١٩ جوزيف وكارولين ميسينجر، كلمات نقتل بها أولادنا لا تقولوها أبدا، شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ٨٩.

٢٠ جوزيف وكارولين ميسينجر، كلمات نقتل بها أولادنا لا تقولوها أبدا، شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ٩٠.

٢١ أحمد يوسف ص ١٤٤

٢٢ محمد محمد يونس علي، قضايا في اللغة واللسانيات وتحليل الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة لبنان، الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص ٤٦.

٢٣ محمد محمد يونس علي، قضايا في اللغة واللسانيات وتحليل الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة لبنان، الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص ٢٧.

٢٤ ماجد عرسان الكيلاني، التربية والتجديد وتنمية الفاعلية عند المسلم المعاصر، ص ٢٠.

٢٥ أندرو نيوبيرغ ومارك روبرت والدمان، الكلمات وتأثيرها على العقل ١٢ إستراتيجية تحادثية لبناء الثقة وحل الخلافات وزيادة المودة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٢، ص ٣٩.

٢٦ أحمد يوسف، علامات فارقة في الفلسفة واللغة الأدب، منشورات الاختلاف الجزائر، الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص ١٤٣.

٢٧ جوزيف وكارولين ميسينجر، كلمات قاتلة لا تقولوها أبدا، دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع،لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١١، ص ١٩.

٢٨ عبد العلي الجسماني، سيكولوجية الإبداع في الحياة،الدار العربية للعلوم لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٥، ص ١٦.

٢٩ عبد السلام المسدي العرب والانتحار اللغوي، مرجع سابق، ص ٤٣.

٣٠ جوزيف وكارولين ميسينجر، كلمات قاتلة لا تقولوها أبدا، دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع،لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١١، ص ١٤٠.

٣١ محمد محمد يونس علي، قضايا في اللغة واللسانيات وتحليل الخطاب،دار الكتاب الجديد المتحدة،لبنان، الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص ٢٦.

٣٢ روبول، نقلا عن: اللغة، دفاتر فلسفية، مرجع سابق، ص ١٥٥.

٣٣ أحمد يوسف، علامات فارقة في الفلسفة واللغة الأدب، منشورات الاختلاف الجزائر، الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص ١١٨.

٣٤ أحمد يوسف، علامات فارقة في الفلسفة واللغة الأدب، منشورات الاختلاف الجزائر، الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص ١٢٩.

٣٥ نبيل علي، العقل العربي و مجتمع المعرفة مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ٢٠٠٩. الكتاب ٣٧٠، الجزء الثاني، ص ١٠٠.

٣٦ أكثر من ١٠٠ فكرة لتدريس مهارات التفكير، ستيفن بوكيت، ترجمة:زكريا القاضي، تقديم:أ.د.حامد عمار،الدار المصرية اللبنانية/القاهرة ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم/دبي، الطبعة الأولى أكتوبر ٢٠٠٨. ص ٢١٣/٢١٤.

٣٧ أكثر من ١٠٠ فكرة لتدريس مهارات التفكير، ستيفن بوكيت، ترجمة:زكريا القاضي، تقديم:أ.د.حامد عمار،الدار المصرية اللبنانية/القاهرة ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم/دبي، الطبعة الأولى أكتوبر ٢٠٠٨. ص ٢٤٤.

٣٨ نبيل علي، العقل العربي و مجتمع المعرفة مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول، سلسلة عالم المعرفة، الكتاب ٣٧٠، الجزء الثاني، ص ٢١٩/٢٢٠، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ٢٠٠٩.

٣٩ محمد الأوراغي، لسان حضارة القرآن، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠١٠، ص ٤١.

٤٠ عبد الرحمن عزي وآخرون، اللسان العربي وإشكالية التلقي، مركز دراسات الوحدة العربية لبنان، سلسلة كتب المستقبل العربي ٥٥، الطبعة الثانية ٢٠١١، ص ٢٢.

٤١ جوزيف وكارولين ميسينجر، كلمات نقتل بها أولادنا لا تقولوها أبدا، شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ٢٠٨.

٤٢ أندرو نيوبيرغ ومارك روبرت والدمان، الكلمات وتأثيرها على العقل ١٢ إستراتيجية تحادثية لبناء الثقة وحل الخلافات وزيادة المودة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٢، ص ٣٠.

٤٣ عبد الرحمن عزي وآخرون، اللسان العربي وإشكالية التلقي، مركز دراسات الوحدة العربية لبنان، سلسلة كتب المستقبل العربي ٥٥، الطبعة الثانية ٢٠١١، ص٢٧.

٤٤ أندرو نيوبيرغ ومارك روبرت والدمان، الكلمات وتأثيرها على العقل ١٢ إستراتيجية تحادثية لبناء الثقة وحل الخلافات وزيادة المودة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٢، ص ٤٢.

٤٥ أندرو نيوبيرغ ومارك روبرت والدمان، الكلمات وتأثيرها على العقل ١٢ إستراتيجية تحادثية لبناء الثقة وحل الخلافات وزيادة المودة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٢، ص ٤٢.